صفحة وعبر التاريخ

عمر بن عبد العزيز

للاستاذ عبد الباسط محمد حسن

سأل الاسكندر حكيما (١) : من يصلح للملك ؟ فقال له .. إما ملك حكيم أو ملك ملتمس للحكمة .. والحكمة فى هذا المقام معناها الفلسفة .. وقد قرن هذا الحكيم السياسة بالفلسفة واعتبرها أداة من أدوات الحكم ووسيلة من وسائل العدل .. واشترط على الحاكم أن يكون فيلسوفا أو ملتمسا للفلسفة ليعم الأمن وينتشر السلام وتستقيم الأمور وتصلح الأحوال ، وكثيرا ما كتب الحكماء فى نظم عامة ابتدعتها أخيلتهم وزعموها توفر على الناس فى هذه الدنيا اللذة والسعادة وتنفى عنهم الألم والشقاوة . فعل ذلك أفلاطون فى الجمهورية والفارابى فى أهل المدينة الفاضلة وتوماس مور فى أوطوبيا كما فعله كثير غير هؤلاء ممن رسم آثار أفلاطون ونسج على منواله . . ومن كتاب هذا العصر الذين تناولوا هذه الناحية كاتب اسمه « موروا » وله كتاب اسمه فن الحياة . . من فصول هذا الكتاب فصل فى فن الحكم يتكلم فيه المؤلف على أخلاق الرؤساء الذين يسوسون أمور الناس . والرئيس الكبير فى نظره هو صاحب الخلق الكبير . . ومهما قال الحكماء أو تحدث الكتاب ، ومهما اختلفت الآراء وتباينت وجهات النظر . . فإن (٢) السياسة تعتمد اعتمادا كبيرا على الأخلاق . . لأن السياسة التى لا خلق لها إنما هى سياسة لا تلبث أن تتلاشى كما يتلاشى الدخان فى الفضاء وما نجحت سياسة بعض رجال العرب فى الماضى إلا لأن أصحابها كانوا على خلق عظيم .. من بين هؤلاء الخليفة العربى المسلم عمر بن عبد العزيز الذى ألفت إليه المقادير زمام الحكم بعد موت سليمان بن عبد الملك دون أن يكون له طمع فى خلافة أو رغبة فى حكم .. وقد نهج فى حكمه نهج جده العظيم عمر الفاروق واحتذى مثاله وسار بالناس فى طريق الخير حتى كان عهده من أحسن عهود التاريخ وأعظمها مكانة وأوفرها خيرا وبركة . . وستظل سيرة عمر بن عبد العزيز قصيدة شعرية رائعة يقرأها الناس فى كل مكان وزمان ليتمتعوا بما فيها من روعة وجمال ، وعظمة وجلال ؛ فالأثر العميق (٤) الذى تركه عهد عمر فى تاريخ الإسلام برغم أن مدة حكمه لم تزد على العامين يدل على أن الخليفة كان ذا صفات عالية .. دقيق الحس فى إدراك الحقائق الواقعة

* * *

ولد عمر بن عبد العزيز بالمدينة سنة ٦١ هـ . . وقيل سنة ٦٣ هـ ولا يغيب عن بال أحد أن المدينة كان لها أعظم الفضل فى تاريخ الإسلام والمسلمين .. فإليها هاجر النبى عليه الصلاة والسلام .. وبها كان أكثر (٥) التشريع الإسلامى؛ وكانت منبعا لأكثر الأحداث التاريخية فى صدر الإسلام ؛ وبها حدث النبى صلى الله عليه وسلم أكثر حديثه . وكانت مركز الخلافة فى أهم عصر من عصور الإسلام أيام أبى بكر وعمر وعثمان وبها كان كثير من أكابر الصحابة قد شاهدوا ما فعل النبى وسمعوا ما قال وكانوا شركاء فى بعض ما وقع من غزوات وفتوح ؛ فهم يحدثون بما سمعوا وشاهدوا . . وكانت مكة والمدينة من أهم مراكز الحياة العلمية فى ذلك العصر يقصدهما طلاب الحديث وطلاب التاريخ وقد فاقت المدينة مكة فى ذلك ؛ لأن أشهر من أسلم من أهل مكة هاجر مع النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . وكان من يسلم بعد الهجرة من أهل مكة يهاجر كذلك خصوصا إذا كان من رجالات قريش وعقلائها .. وكان طلبة العلم يبعثون إلى المدينة ويرسلون إليها ليتعلموا من علومها ويغترفوا من آدابها ويأخذوا عن علمائها. وقد نشأ عمر وشب وترعرع فى هذه البيئة العلمية الزاكية . . وتثقف على أساتذتها وروى الحديث وتلقى الفقه عن جماعة من الصحابة ـ فشغف بالعلم وعلمائه

(١) سلوك السالك فى تدبير الممالك . لصاحبه شهاب الدين بن أبى ربيع

(٢) صور من التاريخ الإسلامى للاستاذ عبد الحميد بك العبادى ص ١٥٥

(٣) العناصر النفسية فى سياسة العرب .. شليق جبرى ص ١٤٣، ١٤٤

(٤) دائرة المعارف الإسلامية المجلد الثانى ص ٦٧٦

(٥) فجر الإسلام .. الجزء الأول للاستاذ أحمد أمين بك ص ٢١١

وبالحديث وبحدثيه ونشأت بينه وبينهم صلة طيبة وعلاقة قوية متينة حتى إنه كان يقول (لأن يكون لى مجلس من عبيد الله أحب إلى من الدنيا وما فيها) والمقصود بذلك هو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود المتوفى سنة ٩٩ هـ والذى يقول فيه أيضا (ما رويت عن عبد الله بن عتبة أكثر مما رويت عن جميع الناس .. كما كانت المدينة تزخر تلك الحقبة بالحياة الأدبية فأخذ عمر بحظه من الثقافة الأدبية . وقد قال عن نفسه (لقد رأيتنى وأنا بالمدينة غلاما من الغلمان ثم تاقت نفسى إلى العلم بالعربية والشعر فأصبت منه حاجتى) .. وقد أثرت هذه البيئة العلمية فى تكوين شخصية عمر .. فحذق العلوم حتى صار فيها إماما ضليعا .. ولذلك يقول فيه ميمون بن مهران المتوفى سنة ١١٧ هـ (ما كان العلماء عند عمر بن عبد العزيز إلا تلاميذ) .. وهناك عامل آخر أثر فى تكوين شخصية عمر .. غير عامل البيئة .. ذلك هو عامل الوراثة .. فأبوه عبد العزيز بن مروان كان واليا على مصر وأقام بها عشرين عاما منذ سنة ٦٥ هـ إلى أن مات سنة ٨٥ هـ وجده مروان بن الحكم الذى ولى الخلافة من سنة ٦٤ — ٦٥ هـ . وأما نسبه لأمه فأمه ليلى أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب وقد ورث كثيرا من صفات عمر وأخلاقه كما كان يحاول التشبه بخاله .. يروى أنه وهو غلام صغير كان يأتى عبد الله بن عمر لمكان أمه منه ثم يرجع إلى أمه فيقول .. يا أمة أنا أحب أن أكون مثل خالى) !

يقول فيه جرير عندما كان واليا على المدينة

إليك رحلت يا عمر بن ليلى ... على ثقة أزورك واعتمادا
إلى الفاروق ينتسب ابن ليلى ... ومروان الذى رفع العمادا
تزود مثل زاد أبيك فينا ... فنعم الزاد زاد أبيك زادا
وأنت ابن الخضارم من قريش ... هم نصروا النبوة والجهادا

وكان (٦) يقال له «أشج بنى أمية» وكان قد رمحته دابة من دواب أبيه فشجته وهو غلام فدخل على أمه فضمته إليها وعذلت أباه ولامته ؛ إذ لم يحمل معه حاضنا ؛ فقال لها عبد العزيز «اسكتى يا أم عاصم فطوبى لك أن كان أشج بنى أمية» (٧)

(٦) تاريخ الكامل لابن الأثير ٥ ، ٦ ص ٢٧
(٧) المصدر نفسه ص ٢٥

وقيل كان ابن عمر يقول «يا ليت شعرى من هذا الذى من ولد عمر فى وجهه علامة يملأ الأرض عدلا» ؟

ولى المدينة سنة ٨٧ هـ .. ثم إن الخليفة الوليد بن عبد الملك ضم إليه بعد ذلك مكة والطائف فأصبح عمر بذلك أميرا على الحجاز كله .. وولى الخلافة سنة ٩٩ هـ إلى سنة ١٠١ هـ —

على (٨) أن عمر فى عنفوان شبابه لم ينس نصيبه من حياة الترف فى حدود الاستمتاع الحلال المشروع حتى إذا حمل أعباء الخلافة نفض يده من الدنيا جملة .. تقول كتب التاريخ فى هذا الصدد (ذكروا أن عمر كان أعظم أموى ترفها . فلا يمر فى طريق ولا يجلس فى مكان الا عرف برائحته . وكان يمشى مشية تسمى العمرية كان الجوارى يتعلمنها من جسمها وتبختره فيها. وقد ترك كل شئ كان فيه لما استخلف غير مشيته فإنه لم يستطع تركها.. قال(٩) مسلمة بن عبد الملك : دخلت على عمر أعوده فإذا عليه قميص وسخ فقلت لامرأته فاطمة وكانت أخت مسلمة «اغسلوا ثياب أمير المسلمين، فقالت نفعل؛ ثم عدت فإذا القميص على حاله فقلت ألم آمركم أن تغسلوا قميصه ؟ فقالت : والله ما له غيره !

كل هذا يصور لنا بجلاء أنه لم ينس نصيبه من الدنيا فى شرخ صباه فلما أن ولى الخلافة خرج عن جميع ما كان فيه من النعيم فى الملبس والمأكل والمتاع

وناحية أخرى تميز بها عمر عن باقى خلفاء بنى أمية .. فما إن تولى خلافة (١٠) المسلمين حتى نجد فى تنفيذ برنامجه الإصلاحى .. ولقد كان له من زهده ومناصرة العلماء له ومواساة أهل بيته : زوجه فاطمة وابنه عبد الملك وأخيه سهل ومولاه مزاحم أقوى عون على ما أراد .. بدأ بمنصب الخلافة ممثلا فيه مجرده من كل مظاهر الأبهة ورده إلى بساطته القديمة .. ثم إنه أمر مناديه أن ينادى : ألا من كانت له مظلمة فليرفعها .. فجعل لا يدع شيئا مما كان فى يد سليمان وفى يد أهل بيته من المظالم إلا

(٨) عمر بن عبد العزيز : أحمد زكى صفوت ص ١٣
(٩) ابن الأثير ص ٢٩
(١٠) صور من التاريخ الإسلامى . للأستاذ عبد الحميد يك العبادى ص ١٤٦

ردها مظلمة مظلمة . . وكان يرد الظالم إلى أهلها بغير البينة القاطعة ؛ وكان يكتفي باليسير فإذا عرف وجه مظلمة ردها عليه ولم يكلفه تحقيق البينة لما يعرف من ظلم الولاة قبله للناس . . فلما بلغت الخوارج سيرة عمر وما رد من المظالم اجتمعوا وقالوا : ما ينبغي لنا أن نقاتل هذا الرجل . يقول ابن (١١) الأثير : ولما رجع عمر من جنازة سليمان بن عبد الملك رآه مولى له مغتما فسأله : فقال . ليس أحد من أمة محمد في شرق الأرض ولا غربها إلا وأنا أريد أن أؤدي إليه حقه من غير طلب منه . . وقالت فاطمة امرأته : دخلت عليه وهو في مصلاه ودموعه تجري على لحيته فقلت أحدث شيء ؟ فقال : إني تقلدت أمر أمة محمد فتفكرت في الفقير الجائع والمريض الضائع والعاري (١٢) والمظلوم المقهور والغريب الأسير والشيخ الكبير وذوي العيال الكثير والمال القليل وأشباههم في أقطار الأرض فعلمت أن ربي سيسألني عنهم يوم القيامة ، وأن خصمي دونهم محمد صلى الله عليه وسلم إلى الله ، فخشيت أن لا تثبت حجتي عند الخصومة فرحمت نفسي فبكيت . . وقال عبد الملك (١٣) لأبيه عمر : يا أمير المؤمنين ما تقول لربك إذا أتيته وقد تركت حقا لم تحيه وباطلا لم تمته ؟ فقال يا بني : إن أجدادك قد دعوا الناس من الحق . . فانتهت الأمور إلى وقد أقبل شرها وأدبر خيرها . . ولكن أليس حسنا وجميلا أن لا تطلع الشمس علي في يوم إلا أحييت فيه حقا وأمت فيه باطلا حتى يأتيني الموت وأنا على ذلك ؟ لهذا كله (١٤) أغنى عمر الناس جميعا إلا نفسه وأهله، فلم ير ولي قوم أعف عن مالهم منه ، ولم ير أهل بيت أصبر على الطعام الخشن والثوب الرقوع والبيت المتهدم منه ومن أهل بيته. ولقد أراح عمر الناس ولكنه أتعب نفسه، فكان حركة دائمة بعمل ليل نهار حتى ذهبت نضرته واحترق جسمه . . توفي عمر بعد ذلك في رجب سنة إحدى ومائة ، وكانت حياة قصيرة حافلة بجلائل الأعمال وعظائم الأمور . . ولما مرض (١٥) قيل له لو تداويت ! قال لو كان دوائي في مسح أذني ما مسحتها . نعم المذهوب إليه ربي ! قال ميمون (١٦) بن مهران قال عمر بن عبد العزيز . . لما وضعت الوليد في حفرته نظرت فإذا وجهه قد اسود ؛ فإذا مت ودفنت فاكشف عن وجهي . ففعلت فرأيته أحسن مما كان أيام تنعمه . .

رحم الله عمر ! ورحم فيه صفاته النبيلة التي ستظل ساطعة على جبين الدهر . . محفوظة في سجل الزمن . .

رحم الله عمر . . ورحم فيه ورعه وتقواه . . وعدله وهداه . .

لقد عاش عمر . . ومات عمر . . ولكن اسمه سيظل حيا في مماته كما كان حيا في حياته

عبد الباسط محمد حسن

(١١) ابن الأثير ج ٥، ٦ ص ٢٩١ (١٢) المصدر نفسه ص ٣١
(١٣) المصدر نفسه ص ٣١
(١٤) صور من التاريخ الإسلامي .. عبد الحميد بك البادي ص ١٧٣
(١٥) ابن الأثير ص ٢٧
(١٦) المصدر نفسه ص ٢٨

دفاع عن البلاغة

للأستاذ أحمد حسن الزيات بك

كتاب يمرض قضية البلاغة العربية أجل معرض ويدافع عنها أبلغ دفاع فيذكر أسباب التنكر للبلاغة ، والعلاقة بين الطبع والصنعة ، وحد البلاغة ، وآلة البلاغة . . . الخ .

من فصوله المبتكرة : الذوق ، والأسلوب ، والمذهب الكتابي المعاصر وزعماؤه وأتباعه ، ودعاة العامية ، ودعاة الرمزية ، وموقف البلاغة من هؤلاء وأولئك . . . الخ

يقع في ١٩٤ صفحة وثمنه خمسة عشر قرشا عدا أجرة البريد